



الفيسفساء روعة العمارة

العربية والاسلامية

يقلم : عبد الجبار محمود السامرائي
الجمهورية العراقية - بغداد

ومن الاجزاء الاخرى التي تغطيها الفيسفساء في قبة
الصغيرة : المنطقة العليا من التشمينة الدائرة ، أى الداخلية
وتشمل الجزء العلوى من الاساطين أو الاكتاف الاربعة ، ثم
كوشات العقود . ومن تلك الاجزاء كرسى القبة أو رقبته .
وقد حدث فى بعض اجزاء الفيسفساء بقبة الصغيرة ترميم
واصلاح فى عصرى الفاطميين والمماليك ، ولكن روعى فيهما
المحافظة على جوهر الرسوم القديمة .

وتتألف هذه الفيسفساء من مكعبات صغيرة مختلفة
العجم من الزجاج الملون وغير الملون والشفاف وغير الشفاف
ومن مكعبات من العجر الابيض أو السوردي ، ومن صفائح
صغيرة من الصدف . وكلها مثبتة على طبقة من الاسمنت فى
وضع أفقى تام . المهم الا المكعبات ذات اللون الذهبى أو
الفضى ، فانها موضوعة بميل قليل لتعكس الضوء . أما سائر
الاسوان الغالبة على هذه الفيسفساء ، فالأخضر بدرجاته
المختلفة ، والازرق والبنفسجى والابيض والاسود .

والموضوعات الزخرفية التى نراها فى فيسفساء قبة
الصغيرة كثيرة جدا . ومن بينها فروع نباتية متصلة وحلزونية
تخرج من آنية ، ويقع بين كل فرعين خارجين من اناء موضوع
زخرفى يشبه الشمعدان وفوقه زخرفة ساسانية مجنعة . كما
نرى من بينها اشجار نخيل واشجارا أخرى . تذكر بما نعرفه
فى فيسفساء بعض الكنائس المسيحية فى القرن السادس
الميلادى . ومن بينها أيضا رسوم الفاكهة ، ولاسيما العنب

الفيسفساء : كلمة مشتقة من اللغة اليونانية .
والمقصود بها : الموضوعات الزخرفية المؤلفة بوساطة
جمع اجزاء صغيرة ومتعددة الالوان من الزجاج او
العجر . وتسميتها بعضها الى جانب بعض ، فوق
الجص أو الاسمنت . وقد تكون هذه الموضوعات
الزخرفية هندسية أو نباتية أو رسوم كانتات حية .
والاغلب ان تكون تلك الاجزاء الصغيرة مكعبات
دقيقة (١) .

ولعل ابداع ما وصل الينا من الفيسفساء فى
العصر الاسلامى هى : فيسفساء (قبة الصخرة) .
وفيسفساء (المسجد الجامع) فى دمشق ، و (قصر
المعجر) ، وسواها فى العصور الغالية .

١ - فيسفساء قبة الصخرة :

كانت الفيسفساء تغطى الجدران الخارجية فى قبة
الصخرة . ولكن لم يبق شيء الان من هذه الفيسفساء اما
الذى لا يزال معقوظا الى اليوم ، فالفيسفساء التى تغطى بعض
الاجزاء الداخلية . ولا ريب فى ان قسما كبيرا من هذه
الفيسفساء المعفوظة ، يرجع الى سنة ٧٢ هـ ، كما تشهد بذلك
كتابة العطر الكوفى البسيط من الفيسفساء المذهبة على أرضية
زرقاء . وتقع فى اعلى التشمينة الداخلية بجوار السقف .
وتتضمن هذه الكتابات : آيات قرآنية .



مزهرة بأوراق الاكانتس من الفسيفساء سنة ٦٩١ م
قبة الصخرة - بيت المقدس -



صورة وردية بالفسيفساء سنة ٦٩١ م قبة الصخرة في
بيت المقدس -

• برسم - تم رسوم أوراق الشجر المختلفة وورق الاكانتس وباقات الزهور وقرون الرخاء ، ورسوم الجواهر والعلی المختلطة بالرسوم النباتية ، فضلا عن رسوم الالهة والنجوم ومعظم هذه الموضوعات الزخرفية معروضة في زخارف الفسيفساء الرومانية والمسيحية ، ومستمدة من الطرازين الساساني والهلنستي .

والواقع اننا نرى في زخارف الفسيفساء بقبة الصخرة التواء عناصر فنية مختلفة ، نعرفها في الاساليب الفنية الاغريقية والرومانية ، ولكنها في هذا الاثر الاسلامي العظيم تختلط بعناصر فنية شرقية المصدر ، وتميزها عن سائر الفسيفساء الاغريقية الرومانية والمسيحية . (٢)

وقد درست الانسة (فان برشم) كل النصوص التي تحدثت عن الفسيفساء في قبة الصخرة ، وانتهى بها البحث الى أن هذه الفسيفساء من صنع عمال سوريين بوجه عام وليست من صنع عمال بيزنطيين ، وأن من المحتمل أن يكون بعض صناع من أجناس مختلفة قد اشتركوا مع الصناع السوريين ، وأن ذلك قد يفسر وجود بعض العناصر الساسانية في زخرف هذه الفسيفساء (٣) ولكننا نلاحظ أن اشتراك عمال من ايران ليس واردا لتفسير الموضوعات الزخرفية الساسانية لان معظم هذه الموضوعات كان قد انتقل الى الشام وأقبل الصناع السوريون على استعماله (٤) .

٢ - فسيفساء الجامع الاموي :

أما فسيفساء الجامع الاموي الكبير في دمشق ، الذي انشاه (الوليد بن عبد الملك) فيمتاز عن جميع الاعمال التصويرية الجدارية الاخرى بموضوعاته وأسلوب الفن فيه .

أما موضوعاته فهي : قصور ومنتشات وجسور وأبراج وأروقة محاطة بالاشجار ، ويقع أغلبها على حواف الانهار والبرك ، ولا يوجد بين هذه المواضيع محل لاشخاص أو حيوانات ، ومما لاشك فيه أن الفنانين تعاشوا ذلك نظرا لان هذه الرسوم تزين مكانا مقدسا يمارس الناس فيه العبادة فلا يجوز إبراز وجوه ترتفع الى مكانة القدسية ، وتذكر بأيام الجاهلية وعبادة الاوثان .

ولقد اختلف في تفسير هذه المواضيع ، رأى يعتقد أن هذه الصور تمثل دمشق ونهر بردى ، وبعض يرى أن هذه الصور تمثل مدينة مقدسة . أما المؤرخ الجغرافي (المقدس) (١٩٨٥ م) فيقول انها صورة العالم (ومن العسير أن تكون هناك شجرة أو مدينة لم تصور على تلك الجدران (٥) .

أما (ريتشارد ايتنكهاوزن) فيرى : « من العسير على المرء أن يتصور دليلا أقوى لسلطة عالمية - أي سلطة الاسلام - تمارسها دولة جديدة أكثر مما وجدناه معروضا في هذه الزخارف الفسيفسائية التي يضمها الجامع الرئيسي في العاصمة دمشق » . (١٦)

ويرى (غرابار) في كتابه (تكوين الفن الاسلامي) : « ان هذه الصور تعبير عن الجنة التي وعد الله بها المؤمنين الاتقياء ، والتي تهفو لها قلوب العرب الظائمة الى فردوس الحياة » . (٧)

أما أسلوب الفن فهو بعيد عن الساسانية بل فيه مسحة سورية محلية ، ولكن أهم مافيهِ :



١ - ألوانه الفسيفسائية قريبة من ألوان فسيفساء قبة الصخرة في القدس الشريف . ويهيمن اللون الذهبي على الخلفيات والفضاء مما يعطى اللوحة طابع الغنى .

٢ - يشترك في الصور ثلاثة أنواع من المنظور . المنظور الغلى ، الذى يبدو فى حالته البدائية ، بل أنه يشبه المنظور الهندى ، على الرغم من أنه سابق لوجوده . ثم نرى بعض المواضع تقوم على المنظور الصينى الذى يجعل نقطة النظر خلف الناظر فيشعر الانسان أنه مدمج بالمشهد معاط به . ثم المنظور الروحى الذى الاسلامى الذى يبدو فى كثير من المواضع التى أخذت طابع الزخرفة .

٣ - يبدو التظليل نمطيا بوضوح ، وتنقلب درجات النور الى خطوط من الالوان المتتابة . (٨)

٤ - التأثر بالاساليب الهلنستية ويبرز هذا التأثير أقوى من فسيفساء قبة الصخرة ، مع أن القبة ترجع الى سنة ٧٢ هـ (٦٩١ م) بينما يرجع الجامع الاموى الى سنة (٩٦هـ) (٧١٥ م) . (٩)

وصفوة القول : ان قوام زخارف الفسيفساء فى الجامع الاموى رسوم العمائر والمناظر الطبيعية لذاتها ، وبغير أن تكون ثانوية فى الصورة ، بالنسبة الى صور آدمية لها الصدارة كما نعرف فى بعض زخارف الفسيفساء البيزنطية .

وتكثر فى العمائر المرسومة فى فسيفساء الجامع الاموى رسوم الاعمدة الكورنثية ذات الغشغان أو القنوات الطويلة ورسوم الاقبية والابرار والسقوف المغروطة الشكل والسقوف ذات الجملون وأشجار السرو .

ويمكننا أن نقول بوجه عام ، ان الصناعة واحدة فى فسيفساء قبة الصخرة وفسيفساء الجامع الاموى ، ولكن الوحدة والتلاؤم أقل ظهورا فى الأخيرة ، ولعل ذلك راجع الى أن الاصلاح والترميم الذى تم فيها كان أكثر مما تم فى قبة الصخرة . والراجع أن الجزء الذى جاء فيه رسم النهر يرجع الى عصر الوليد بن عبد الملك فى نهاية القرن الاول الهجرى وبداية القرن الثامن الميلادى ، بينما ترجع أجزاء أخرى الى الترميم الذى تم فى عصر السلطان السلجوقى ملكشاه سنة ٤٧٥ هـ (١٠٨٣ م) وترجع غيرها الى عصر السلطان بيبرس (١٠) .

٣ - قصر المفجر :

ومن ابداع أمثلة الفسيفساء فى العصر الاموى ، تلك التى كشفت فى قصر هشام بغربة (المفجر) ، ثم ماكشف فى خربة المنية بفلسطين أيضا (١١) .

ان شجرة التفاح التى تزين أرض حنية فى حمام قصر المفجر (اريحا - فلسطين) من أهم الالواح التى تثير مشكلة فنية خاصة هى وتوابعها ، اللوحة الزخرفية التجريدية الدائرية

ان صورة الشجرة واقعية الاسلوب ، ولقد تفنن صانها فى التعبير عن المنظور الهوائى ، فبدت الاوراق ذات ابعاد فى الفراغ تجلت بتأثير حسن ترتيب الالوان وتركيز تضادها . ويبدو التحجيم دقيقا فى تكوين الاسد والغزلان الثلاثة فى اسفل الشجرة ، فلقد كان التظليل شديد الوضوح مفيدا فى التعبير عن التشريح والحركات .

على أن البساط الفسيفسائي الذي يغطي أرض قاعة الاستقبال في حمام القصر ، يعتبر رائعة لامثيل لها في فن التصوير التجريدي ، بل هي تدخل في صميم الفن البصري ، وهي مؤلفة من حصرة طولانية مؤلفة من بلاطات فسيفسائية مربعة ومتشابهة وفي منتصفها دائرة فيها تخطيطات ملونة اشعاعية معاطة بضيقة ذات تظليلات واقعية - ونحن لانستطيع تحديد مصدر لهذا النوع من التصوير ، كما اننا لانرى مثيلا له فيما بعد بين آثار التصوير العربي (١٢) •

صناعة الفسيفساء في العصر العباسي

ولم تصل إلينا نماذج كافية من صناعة الفسيفساء في العصر العباسي • ولذا كان كل مانعرفه في هذا الميدان قائما على ماكتبه المؤرخون العرب ، وعلى بعض نماذج ضئيلة عثر عليها المنقبون في حفائر (سمرا) (١٣) وذلك في أطلال قصور الخلفاء والمسجد الجامع ، وبعض البيوت الكبيرة ولكن هذه النماذج التي عثر عليها ليست في حالة جيدة • ولا يمكننا ان نتيين الموضوع الزخرفي الا على قطعة واحدة منها ، وجدت في حمام القصر الكبير • وأرضية هذه القطعة ذهبية اللون ، وتقوم فوقها رسوم شرع نباتي من أوراق الاكانتس بلون أخضر مختلف الدرجات ، فضلا عن رسوم الازهار وأوراق الشجر المختلفة • (١٤)

وقد ذكر (الغزولي) في كتابه (مطلع البدر) : ان بغداد كان فيها حمام في دار أحد الامراء فيه خلوات أو أجزاء مستقلة ، احداها (مصورة بفصوص حمر وخضر ومذهبة وكلها متخذة من بلور مصبوغ بعضه أصفر وبعضه أحمر ، فاما الاخضر فقليل انه حجارة تأتي من الروم والمذهب فهو زجاج ملبس بالذهب) •

والراجع أن أساليب الزخرفة بالفسيفساء في العصر العباسي لم تختلف كثيرا عن الأساليب التي عرفناها في العصر الأموي ، وانها كانت مثلها متأثرة بالأساليب الهلنستية لاسيما ونحن نعرف ان بلاد العراق كان فيها صناعات فسيفساء من الروم منذ القرن الاول قبل الاسلام ، وكثير ما تشير المصادر التاريخية العربية في فجر الاسلام الى ورود الفسيفساء واستقدام صناعاتها من بيزنطة •

ومما نعرفه عن الفسيفساء في العصر العباسي ما ذكره (المقدسي) عن اصلاح الكعبة على يد الخليفة المهدي ، وعن تغطية جدران ردهاتها بالفسيفساء بواسطة فنانين من الشام ومصر • (١٥)

صناعة الفسيفساء في العصر السلجوقي

ومما يمكن الحاقه بصناعة الفسيفساء في العصر السلجوقي ، كسوة الجدران بقوالب من القرميد توضع على هيئة الفسيفساء ، وتؤلف جوانبها الضيقة أشكالاً متعددة الاوضاع ، وأطباقاً نجمية تحفر في حشواتها شتى الفروع النباتية والرسوم الهندسية • (١٦)

الفسيفساء الاندلسية

ومن هذه الفسيفساء التي نعرفها في بلاد الاندلس ، الموضوعات الزخرفية النباتية والكوفية التي تزين محراب الخليفة (الحكم) في المسجد الجامع بمدينة قرطبة والقباب الواقعة امام هذا المحراب ، ولكن هذه الفسيفساء بيزنطية (١٧)



ايوان قصر (الوسط) مسكن خاص (الى اليسار)
مع باب (الى اليمين) بالفسيقساء سنة ٧١٥ م ، زُخرف
صنية على داخل الرواق الغربى لباحة المسجد الكبير .



منظر نهري مفصل : ميدان سباق الخيل بالفسيقساء
سنة ٧١٥ م على الجدار الغربى من رواق المسجد الكبير في
دمشق .

الاسلوب ولا تكاد تختلف عن سائر الفسيقساء البيزنطية
المعاصرة لها في القرن الرابع الهجرى «العاشر الميلادى» (١٨)
وتكشف الفسيقساء عن الروح البيزنطية التى كانت
شائعة فى الفن الاسلامى فى سنيه الاولى ، ويؤيد
(ابن عذارى) هذه الحقيقة فى تاريخه ، من أن الخليفة
(الحكم) بعد أن وسع مسجد قرطبة ، طلب الى امبراطور
بيزنطة ارسال كمية من قصوص الفسيقساء ، كما طلب اليه
ايضا ايقاد بعض الصناع من تلك القصوص للعمل على تزيين
محراب المسجد الجامع . ويقول ابن عذارى انه حضر بالفعل
مع قصوص الفسيقساء صانع بيزنطى ساهم فى وضعها فى
مكانها . كما انه علم طائفة من صناع قرطبة هذه الصناعة .
وبعد أن انتهت مهمته ، استأذن العودة الى بلاده فأذن له وخلع
عليه . (١٨)

وتقوم زخارف هذه الفسيقساء على العناصر النباتية .
وعلى الكتابات العربية التى تتضمن نصوصا قرآنية ، ونصوصا
تاريخية ، تؤكد عمل الفسيقساء فى عصر (الحكم المستنصر)
اذ جاء فيها (بسم الله الرحمن الرحيم - أمر عبد الله
الحكم أمير المؤمنين أصلحه الله موليه وحاجبه جعفر بن
عبد الرحمن رحمه الله بعمل هذه الفسيقساء للمبىء المكرم
فتم جميعا بعودة الله تعالى سنة أربع وخمسين وثلاث مائة) .

وتبرز لنا هذه الكتابة فى لون أزرق جميل على أرضية
مذهبة ، أو تنعكس الآية فتبدو مذهبة على أرضية زرقاء اللون
والى جانب هذين اللونين الذهبى والأزرق نرى الاخضر
والاصفر والبنفسجى والابيض . وهذا التباين فى الالوان قد
أكسب المحراب جمالا رائعا . (١٩)

الفسيقساء فى عصر المماليك

وازدهر نوع آخر من الفسيقساء فى مصر على عهد
المماليك ، وهو الفسيقساء المصنوعة من المكعبات الصغيرة من
الرخام . وكان أكثر استعماله فى المعاريب والوزرات
بالمساجد ، كما كانت تصنع منه الفسقيات والاحواض ، فضلا
عن استعماله فى زخرفة الارض وما الى ذلك .

ومن ابداع امثلة هذه الفسيقساء الرخامية صفة فى دار
الاثار العربية بالقاهرة . وحوض فى متحف فكتوريا والبرت .
ومنها أيضا محراب المدرسة الطبرسية بالجامع الازهر . (٢٠)

خاتام

لقد تجلت عبقرية الفنان العربى المسلم أروع ماتجلت
فى عمل الفسيقساء (الموازيك) وان هذه الروائع
الفسيقسائية الموجودة فى أكبر المساجد فى العالم الاسلامى
تكشف لنا أنه لم يكن القصد من عمل الفسيقساء الا الهدف
التجمل والتعبير عن أقصى حالات السعادة . (٢٢)

الهوامش :

(١) الدكتور زكى محمد حسن :

فنون الاسلام ص ٦٤٣

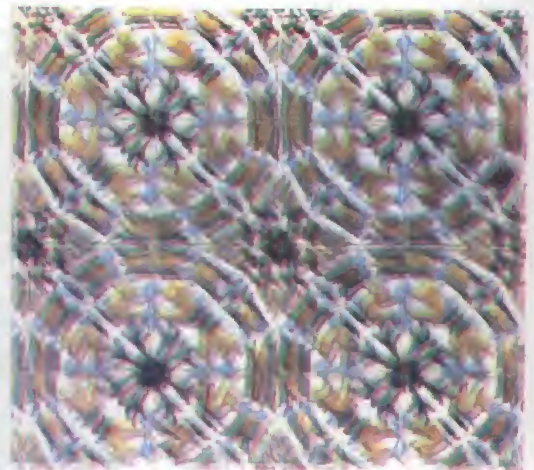
الطبعة الاولى / ١٩٤٨ مطبعة لجنة التأليف والترجمة
والنشر / القاهرة

(٢) نفس المصدر ص ٦٤٣ - ٦٤٧

Creswell : Early Muslim Architecture I, P. 227



منظر نهري مفصل : قرية بالفسيفساء سنة ٧١٥ م على
الجدار الغربي من رواق المجد الكبير في دمشق .



تمثل هذه الصورة ، قطعة من الفسيفساء الذي تفنن
في انتاجها اجدادنا العرب في الفردوس المفقود ، ولا يزال
القوم في الاندلس يقلدون العرب في انتاج مثل هذه
الفسيفساء الرائعة الاشكال والالوان .

- (٤) فنون الاسلام ص ٦٤٧
(٥) د- عفيف بهنسي :
جمالية الفن العربي ص ٥٢
سلسلة (عالم المعرفة) الكويت - ١٩٧٩
(٦) فن التصوير عند العرب :
ترجمة الدكتور عيسى سلمان وسليم طه التكريتي
بغداد - وزارة الاعلام .
(٧) جمالية الفن العربي الاسلامي ص ٥٢
(٨) نفس المصدر ص ٥٣
(٩) فنون الاسلام ص ٦٤٨
(١٠) نفس المصدر ص ٦٤٧ - ٦٤٨
(١١) نفس المصدر ص ٦٤٩
(١٢) جماليات الفن العربي الاسلامي ص ٥٣ - ٥٤
(١٣) سامراء العالية ، وهي مدينة عريقة ، تبعد عن بغداد
حوالي (١٢٠) كيلو مترا الى الشمال .
Lamm : Das Glas von Samarra. pp. 115 - 121
وانظر : فنون الاسلام ص ٦٤٩ - ٦٥١
(١٥) فنون الاسلام ص ٦٥١
(١٦) فنون الاسلام ص ٦٥١ - ٦٥٢
(١٧) ورث البيزنطيون طريقة الزخرفة بالفسيفساء عن
الرومان ولكنهم طوروا بها ، فبعد ان كانت فصوصها
تصنع من العجر الملون أو العصى الملون أو الصدف ،
صنعها البيزنطيون من الزجاج ، وبعد أن كان الرومان
يزينون بها أرضية العمارات بصور من حياتهم الاجتماعية
ومناظر من عقائدهم الدينية ، اقتصر البيزنطيون على
استعمالها في تزيين الجدران بصورة مستمدة من الكتاب
المقدس ، وتعتبر كنيسة (آيا صوفيا) في اسطنبول
أروع أمثلة الفسيفساء البيزنطية ، إذ تزدهن جدرانها
بصور القديسين مرقص في مدينة البندقية تزدهن في
أماكن متفرقة منها بصور دينية جميلة ، وكنيسة
(رافنا) في إيطاليا بها كذلك أمثلة رائعة من
الفسيفساء البيزنطية . وقد ورث المسلمون هذه
الطريقة وزينوا بها قبة الصخرة في القدس والمسجد
الاموي في دمشق وقصر هشام في خربة المفجر ، وكلها
من آثار الامويين في الشام .
- الدكتور محمد عبد العزيز مرزوق : الفنون
الزخرفية الاسلامية في المغرب والاندلس ص ٧١ - ٧٢
دار الثقافة - بيروت .
(١٨) مانويل جوميت مورينو :
الفن الاسلامي في اسبانيا - الترجمة العربية ص ١٦٤
القاهرة / ١٩٦٨ م .
(١٩) الفنون الزخرفية الاسلامية في المغرب والاندلس ص ٨٣
(٢٠) فنون الاسلام ص ٦٥٤
(٢١) شريف يوسف :
الزخارف والزينة في العمارة العربية الاسلامية .
مجلة (الرواق) - العدد الخامس ص (٢٧) بغداد
- ١٩٧٩ م .
(٢٢) جماليات الفن العربي الاسلامي ص (٥١)

منذ بدء الخليقة بدأت محاولات الإنسان
التعبير والوصف عما يعيش في أعماقه .. أفر
محاولة الإنسان - وربما هي أقدم المحاولات جاء
بالإيقاع والنغم المصاحب له - محاولته التي اتسمت
في الفولكلور في كل البلاد ، ولعل ارتباطها
بالمناسبات العامة والخاصة التي يحتفل بها المجتمع
كان له أثر كبير في ازدهارها وانتشارها واحتفاظ
المجتمع بها .. وترديده لها كلما دعت الحاجة إلى
ذلك .. وكما كانت هناك مناسبة يمكن أن تسهم
فيها الأغنية الشعبية بدور فعال ..

